

الفصل التاسع

الشعراء في عهد العباسيين

(١) شعراء مصر :

أما شعراء مصر في هذه الفترة فلم يكن عددهم كثيراً ، ولا كان الشعر عملهم إذا استثنينا المَعَلِّيَّ والحسين بن عبد السلام الجمل . لكن الشعر الباقي لنا يدل على استعداد قديم ، وعلى مواهب لوقيض لها من يشجعها أو انصرف أصحابها إلى ترقيتها لأبدعوا وأجادوا ، كإسحاق بن معاذ بن مجاهد بن خير ، ويحيى الخولاني . وأشهر هؤلاء الشعراء سعيد بن عفير ، والعلی الطائي ، والحسين بن عبد السلام الجمل .

١ — سعيد بن كثير بن عفير : (١٤٦ — ٢٢٦ هـ)

أول شعراء هذا العصر ، وهو رجل متعدد النواحي إذ كان فقيهاً ومحدثاً وكاتب قضاء ، كما كان شاعراً راوية للأدب ، عالماً بالأنساب والأخبار ، وأيام العرب ومآثرها ووقائعها ، والمناقب والمثاب ، وكان في ذلك كله شيئاً عجيباً^(١) . أما شعره فيمتاز بالصدق والصراحة ، والبعد عن الزلفي . وفيه النقد الحر للوالى . وقد تقدم أكثر شعره الذي جاء به الكندي . وأول ما روى له من الشعر متصل بسنة ١٦٨ هـ ، وآخر ما روى له كان في سنة ٢٠٩ . وقد يبدو في

(١) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٧٥ .

شعره أثر المصيبة والميل إلى قحطان وإلى قضاة ، وشعره في جلته جيد الأسلوب
صادق المعنى .

٢ — المعلى الطائى :

عاش المعلى وسعيد بن عفير زمنا . والأشعار التي رواها الكندي له تمتد من
سنة ١٩٤ — ٢١٤ هـ . وقد شغلا شعرهما بالأخبار والحوادث ، أو رجال الدولة
وأعمالهم ، أو بالسياسة وتطورها ، ولكن اختلفت طباعهما وثقافتها وصلتهما
بالولاة ، ويظهر أن المعلى كان أقربهما إلى الشعر ، وأكثرهما تجويداً له وعناية به ،
كما كان أصغرهما سناً .

وللمعلى الطائى شعر في غير الكندي . فقد روى له الأغاني بيتين^(١) في الدعوة
إلى الصبّوح صبيحة النيروز ، وفي تبسم الربيع عن نواره . وروى له قصيدة في
مدح عبد الله بن طاهر والاعتذار إليه بعد تغلبه على ابن السرى^(٢) .

وقصة هذا المدح أنه لما فتح ابن طاهر مصر « سوغه المأمون خراجها ،
فصعد المنبر ، فلم يزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف دينار أو نحوها ؛ فأتاه معلى
الطائى ، وقد أعلموه ما صنع عبد الله بن طاهر بالناس في الجواز ، وكان عليه
واجداً ، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال : أصلح الله الأمير . أنا مُعلى الطائى ،
وقد بلغ منى ما كان منك من جفاء وغلظ ، فلا يغلظنَّ على قلبك ، ولا يستخفنك
الذى بلغت . أنا الذى أقول :

يا أعظم الناس عفوا عند مقدرة	وأظلم الناس ، عند الجود ، للمال
لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهباً	لما أشرتَ إلى كُزْنٍ بِمِثْقَالِ
تُغلى بما فيه رِقِّ الحمد تملكه	وليس شيء أعاضَ الحمدَ بالغالى

(٢) ج ١١ ص ١٢ .

(١) ج ١٧ ص ١٢٧ .

تَفُكْ بِاليسْرِ كَفَّ العسر من زمنٍ إذا استطال على قومٍ بإقـلالٍ
لم تَحُلْ كَفْكَ من جودِهِ مُخْتَبِطٍ ومرهفٍ قاتلٍ في رأس قتالٍ
وما بَيَّنَّتْ رَعِيلَ الخيلِ في بلدٍ إلا عصفن بأرزاقٍ وآجالٍ
إن كنتُ منكَ على بالٍ منتَ به فإن شكركَ من قلبي على بالٍ
ما زلتُ مقتضِبًا لولا مجاهرةً من السُّنِّ خُضنَ في صدري بأقوالٍ

قال : فضحك عبد الله ، وُسْرًا بما كان منه ، وقال : يا أبا السمراء . أقرضني عشرة آلاف دينار ؟ فما أمسيت أملكها . فأقرضه ، فدفعها إلي .

وهذا من جيد المدح لحسن السبك ولطف المعاني .

واستدل بعض المؤرخين بهذا المدح على أن المعلي كان متنقلا في ولائه ، وأنه كان متكسبا بشعره . ولكن ذلك كان شائعا في أكثر الشعراء . فكيف يؤخذ المعلي وحده بذنبه ؟ أما ابن طاهر فكان سخيا ، سريع الغفو عنه ؛ لما كان يعرفه عن الشعراء من ولاء متنقل ، وإخلاص لمنصب الوالي وعطائه ، ولما فيه من ذوق رقيق وحس مرهف يتأثر بهذا البيان القوي ، والشعر السائر .

وروى ابن عبد ربه خبر رثاء المعلي لجاريته ، فقال (١) :

« كان لمعلي الطائي جارية يقال لها « وصف » وكانت أديبة شاعرة . فأخبرني محمد بن وضاح قال : أدركت معلي الطائي بمصر وأُعْطِيَ بجاريته « وصف » أربعة آلاف دينار فباعها ، فلما دخل عليها قالت له : بعثني يا معلي ؟ قال نعم . قالت : والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما بعثتك بالدنيا وما فيها ! فرد الدنانير

(١) العقد الفريد ص ١٨٩

واستقال صاحبه . فأصيب بها بعد ثمانية أيام . فقال يرثيها :

ياموت كيف سلبتني « وَصَفَا »
هلا ذهبت بنا معاً ، فلقد
وأخذت شق النفس من بدني
فعليك بالباقي بلا أجل
ياموت ما بقيت لي أحداً
هلا رحمت شباب غانية
ورحمت عيني ظبية جمعت
تفرضي إذا انتصفت مرابضه
فاذا مشى اختلفت قوائمه
متحيراً في المشى مرتمشاً
فكانها « وصف » إذا جمعت
ياموت أنت كذا لكل أخى
خليتني فردا وبنيت بها
فتركها بالرغم في جدث
دون المقطم لا يلبسها

قَدَمْتَهَا وَتَرَكْتَنِي خَلْفًا
ظَفِرْتِ يَدَاكَ ، فَسَمَمْتَنِي خَسِيفًا
فَقَبْرَتَهُ ، وَتَرَكْتَ لِي النِّصْفَا
فَاللُّوتُ بَعْدَ وَفَاتِهَا أُعْنِي
لَمَّا رَفَعْتَ إِلَى الْبَلِي « وَصَفَا »
رَبِّيَا الْعِظَامِ وَشَعْرَهَا الْوَحْفَا^(١)
بَيْنَ الرِّيَاضِ تَنَاطُرِ الْخِشْفَا^(٢)
وَتَطْلُلُ تَرَعَاهُ إِذَا أُغْنِي
وَقْتُ الرِّضَاعِ فَيَنْطَوِي ضَمْعَا
يَخْطُو وَيَضْرِبُ ظِلْفُهُ الظَّلْفَا
نَحْوِي نُجَيْرُ مَحَاجِرَا وَطُفَا^(٣)
إِلْفًا بِصَوْتِ بِيْرِهِ الْإِلْفَا
مَا كُنْتُ قَبْلَكَ حَامِلَا وَكُفَا^(٤)
لِلرِّيْحِ تَنْسِفُ تَرْبَهُ نَسْفَا
فِي زِينَةِ قُلُوبَا وَلَا شَنْفَا^(٥)

(١) الوحف : الكثير الأسود .

(٢) الخشف : بفتح الحاء وكسرها : ولد الظبي أول ما يولد ، أو أول مشيه .

(٣) شعر أجفانها كثير : جمع وطفاء .

(٤) الوكف : الضعف ، والثقل ، والشدة .

(٥) القلب سوار المرأة . الشنف : ما يعلق في أعلى الأذن كالقرط .

أسكنها في قمر مظلمة
بيتاً إذا مازاره أحد
لا نلتقي أبداً ممايئةً
حتى تقوم ربنا صفاً
بيتاً يصافح ربُّه السقفا
عصفت به أيدى البلى عصفاً
لبست ثياب الحنفر جاريةً
فكأنها والنفس زاهقةً
قد كنت ألبسُ دونها الحنفاً
غصن من الريحان قد جففاً
ياقبر أبقِ على محاسنها
فلقد حويت البرَّ والظرفاً

والمقدمة التي جاء بها ابن عبد ربه تثير العطف والإشفاق على تلك الجارية الضعيفة الحيلة ، مع سيدها الذي آثر الدنانير عليها . وقد استطاعت أن تهز مشاعره ، وتمطف قلبه ؛ فاستردها مشفقاً عليها ، واستبقاها متأثراً بعتابها الباكي الحزين . لكن الموت عدا عليها بعد أيام . ولا ندري إن كان ذلك من خشية الفراق ، أم من مرض قاتل .

وقد رثاها المولى ، فجعل رثاءه حديثاً إلى الموت ، مملوءاً بالحسرة الشديدة على حسنها الفاني ، وشبابها المحتضر . وعتاباً لهذا الموت الذي لم يرق للجبال الغض ، بل عصف به ، فأسكنه جدتاً موحشاً ، وأسلمه إلى أيدى البلى تعبت به ماشاءت ، حتى تحيله تراباً . ويختم الرثاء بضراعة لا تجدى ، ونداء لا يفيد . إذ يقول :

ياقبر أبقِ على محاسنها . فلقد حويت البر والظرفا

وقد اختارها ابن عبد ربه مثلاً في رثاء الجوارى فأحسن الاختيار ؛ لما فيها من سهولة في التعبير ، وقدرة على إثارة الأشجان ، وحسن اختيار للمعاني التي دار حولها الرثاء .

والمعنى الطائى شعر يصف فيه محبة الآباء لأولادهم فيقول :

لولا بُنَيَاتُ كزُغَبِ القَطَا
لكان لى مُضْطَرَبٌ واسعٌ
مُجِئِنَ من بعضِ إلى بعضِ
فى الأرضِ ذاتِ الطولِ والمرضِ

وإعسا أولادنا بَيْنَنَا أكبادنا تمشي على الأرض.
إن هَبَّتْ الرِّيحُ على بعضهم أَشْفَقَتِ العَيْنُ من القَمَضِ (١)

وهو شعراثر ، يتردد صدهاء في الأجيال والأقطار ، وذلك لاتصاله بكل قلب ،
ونعامة بكل نفس ، وإحساس الناس جميعاً بمعناه إحساساً عميقاً ، وفيه من السهولة
والقوة ما ضمن له الخلود والذويوع .

٣ - الجل الشاعر : (١٧٠ - ٢٥٨ هـ)

وهو أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام ، الشاعر المصري المشهور ،
المعروف بالجل .

تقدمت لهذا الشاعر أبيات في مدح القاضي محمد بن أبي الليث (٢) وذم أعدائه
سنة ٢٢٧ هـ . وقال عنه ياقوت إنه كان « شاعراً مقلماً ، مدح الخلفاء والأمراء » .
وإنه « قدم دمشق وافداً على أحمد بن المدبر ؛ وكان أحمد مقصد الشعراء ؛ فمن
مدحه بشعر جيد أجزل صلته ، ومن مدحه بشعر رديء وجه به مع خادم له إلى
الجامع ، فلا يفارقه حتى يصل إلى مائة زكوة ثم يصرفه ، فدخل عليه الجل
وأنشده (٣) :

أردننا في أبي حسن مديحاً كما بالمدح تُنتججُ الوُلاةُ
فقالوا أكرمُ الثَّقَلَيْنِ طراً وَمِنْ جَدْوَاهُ دَجَلَةٌ والفِراتُ
وقالوا يقبلُ الشُّعراءَ ، لكن أَجَلٌ صَلَاتِ مادِحِهِ الصلاةُ

(١) نسبها ابن سعيد في المغرب ص ١٠١ إلى النعلى الطائى ، وجاء ابن عبدربه بالأبيات
الثلاثة الأولى ونسبها إليه ، مع تغيير كلمة « جمن » إلى « خططن » ج ١ ص ٣٦٤ ،
ولكن أياً تمام في الحاشية ج ١ ص ١٠٨ ينسبها إلى حطان بن العلى مع ثلاثة أبيات قبلها في
الشكوى من الدهر .

(٢) ص ٢٠١ من هذا الكتاب . (٣) معجم الأدباء ج ١٠ ص ١٢١ .

فقلت لهم : وما يعني عيالي صلّاتي ؟ إنما الشأنُ الزكاةُ
فيأمرُ لي بكسر الصادِ منها فتصبحُ لي الصَّلَاةُ هي الصَّلَاتُ
وقد تجد في هذا الشعر تكلفاً وصنعة ثقيلة في تكرار الصلّات والصلاة ،
وكسر الصاد لينال ما يتفنيه ، والتعبير عن ذلك بالزكاة . ولكنه في جملة شعر
خفيف الروح لطرافة الموضوع ، وغرابة العقاب .

ويظهر من تاريخ الحسين بن عبد السلام أنه كان متكسباً بشعره مادحاً ،
حراً تَحَلّياً أو مقياً . فقد مدح المأمون لما قدم إلى مصر ، ومدح الأمراء مثل
عبد الله بن طاهر . فإذا حيل بينه وبين ممدوحه عتب أو هجا ، كمادة كثير
من الشعراء .

روى ابن عبد ربه في العقد^(١) « أن حسين بن الجمل بكر إلى باب سليمان بن
وهب ، فحجبه الحاجب وأدخل ابن شَمَوَةَ وحمدويه ، فقال الجمل :

ولعمري لئن حَجَبْتَنَا عن الشيد سخ فلاعن وجهه هناك وَجِيه
لا ، ولا عن طمامه التافه النز ر الذي حوَّله لِطَامُ بنيه
بل حَجَبْتَنَا عن الخسف والمس سخ وذاك التبريق والتَّموِيه
فجزى الله حاجباً لك فَظًّا كل خيرٍ عَنَّا ، إذا يَجْزِيه
فلقد سرتني دخولُ أخي شَم وة دوني ، وبمَدّه حمدويه

وترى في هذا الهجاء لساناً حديداً ، وطعنات في تلك الوجوه القبيحة ، واتهاماً
بالبخل والشح وقلة الطمام . وترى فيه مغالطة الشعر عندما دعا للحاجب الفظ ،
لأنه أحسن إليه فمنعه من لقاء تلك الوجوه .

(١) ج ١ ص ٤١ وقد اختصراً اسمه كما ترى

ولعله قد لقي من الرفض والحرم ما أثار نفسه ، فدعا إلى القناعة وقال :
إذا أظمأنك أكف اللثام كفتك القناعة شَبْعاً ورِيًّا
فكن رجلاً رجُلُه في الثرى وهامة هَمَّتِه في الثريا
أيًّا لنائل ذي ثروة تراه بما في يديه أيًّا
فإن إراقة ماء الحيا ة دون إراقة ماء الحيا

وربما كان شعره هذا أثرًا من آثار ضيق النفس بذل السؤال ، ورجوعها إلى
رشدتها وتذكرها للمثل العليا ، والأخلاق الكريمة . وهو شعر غريب ممن كان
على مثل صفاته ؛ إذ يقول عنه ابن يونس في تاريخ مصر^(١) إنه كان « شرها في
الطعام ، دنى النفس ، وسخ الثوب » وتلمح آثار الشره في قصيدته السابقة لما
حجب عن طعام سليمان بن وهب .

وفي شعر الجمل هذا ما في شعر زمانه من عناية بالبديع ومحسناته ، وفي بعضها
تكلف وثقل كما في شعره لابن المدبر ، وانظر إلى الأبيات الثلاثة الأخيرة تجدها
ممتلئة بالجناس والمقابلة والاستعارة .

(ب) الشعراء الزائرون :

لم تخل مصر من شعراء قدموا إليها مادحين ، يرجون خيراً من ولائها ،
وشيثاً من ثمراتها ، « فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم
يسخطون » ولكن هذه الوفادة لم تصل إلى ما كان في عهد عبد العزيز بن مروان .

١ — من مدحوا يزيد بن حاتم

من الولاة الذين وفد عليهم الشعراء بمصر الوالي يزيد بن حاتم المهلبى (من
سنة ١٤٤ — ١٥١) .

وكان ربيعة الرقي (الشاعر العراقي) قد قدم مصر فأتى يزيد بن حاتم السلمي .

(١) قلا عن معجم الأدباء ج ١٠ ص ١٢٢

فلم يعطه شيئاً ، ثم عطف على يزيد بن حاتم الأزدي فشغل عنه ببعض الأمر ،
فخرج وهو يقول (١) :

أَرَانِي ، وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ ، راجعاً بِخُفَى حُنَيْنٍ مِنْ نَوَالِ ابْنِ حَاتِمٍ

فسأل عنه : فأخبر أنه قد خرج وقال كذا - وأُنشِدَ البيت - فأرسل في

طلبه ، فأتى به ، فقال : كيف قلت ؟ فأنشده البيت . فقال : شغلنا عنك !

ثم أمر بخفيه فخلعتا من رجله وملئتا مالا . وقال : ارجع بهما بدلا من خفي حنين .

ولما عزل عن مصر ، ووليها يزيد بن حاتم السلمي قال ربعة :

بكى أهل مصرٍ بالدموع السَّوَاجِمِ غَدَاةً غَدَا مِنْهَا الْأَعْرُثُ ابْنُ حَاتِمٍ

وفيها يقول :

أَسْتَتَانِ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى يَزِيدِ سَلِيمٍ وَالْأَعْرُثُ بْنُ حَاتِمِ

فَهَمُّ الْفَتَى الْأَزْدِيِّ إِتْلَافُ مَا لِي وَهَمُّ الْفَتَى الْقَيْسِيِّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ

فَلَا يَحْسَبُ التَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

وخرج إليه رجل من الشعراء يمدحه . فلما بلغ مصر وجده قد مات ،

فقال فيه :

لئن مصرُ قَاتَتْنِي بما كُنتُ أرتجى وَأَخْلَفَتْنِي مِنْهَا الَّذِي كُنتُ أَمَلُ

فَأَكَلْتُ مَا يَخْشَى الْفَتَى بِمُصِيبَةٍ وَلَا كُلُّ مَا يَرْجُو الْفَتَى هُوَ نَائِلُ

وَمَا كَانَ بَيْنِي لَوْ لَقَيْتُكَ سَالِمًا وَبَيْنَ الْفَتَى إِلَّا لِيَالٍ قَلَائِلُ

وقصده محمد بن عبد الله بن مسلم - ابن المولى - ومدحه بقصيدة جميلة أولها :

وَإِذَا تَبَاعَ كَرِيمَةٌ أَوْ تَشْتَرَى فَسَوَاكُ بِأَمْعَانِ وَأَنْتَ الْمُشْتَرَى (٢)

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢ .

وزيد بن حاتم معدود من أجواد العرب الذين سارت بجودهم الركبان ، ويفهم من مقدمة هذه الأبيات الأخيرة أنه أقام بمصر بعد عزله وظل بها حتى مات .

٢ — أبو نواس بمصر :

ويحدثنا التاريخ الأدبي أن والياً بمصر اسمه الخصيب بن عبد الحميد^(١) كان مقصد شاعر من كبار شعراء بغداد ، هو الحسن بن هانيء الملقب بأبي نواس . وقد سكت التاريخ السياسي فلم يتحدث عن الخصيب هذا ، لكن تاريخ الأدب خلد اسمه في قصائد أبي نواس التي قالها مدحا وهجاء في وفادته عليه .

روى أنه لما قدم أبو نواس على الخصيب بمصر ، صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح لهم . فلما فرغوا استنشد الخصيب فقال : ألا تنشدنا يا أبا علي . فقال أبو نواس : أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يافكون ، فأنشده قصيدته الرائية التي أولها :

أجارة بيتينا أبوك غيورٌ وميسورٌ ما يرهبني لديك عسيرٌ
حتى أتى على آخرها ، فانفض الشعراء من حوله ، واهتز لها الأمير ، وأمر له بجائزة سنية .

ويقال إنه كان قد خرج إلى مصر في زى الشطار وتقطيعهم ، بطرّة قد صففها ، وكّمين واسمين ، وذبل مجرور ، ونعل مطبق . وكان خروجه مع سليمان بن أبي سهل ، فلما دخل على الخصيب بهذه الصورة ازدراه واستخف به ، وكان تورّد عليه كتب الجلّة ممن يباب السلطان ، ووردت كتب أبي نواس فيها ، فقرأها ولم يستنشده ، فانصرف مهموماً ، وجاءه أهل الأدب ، فاستمعوا

(١) الخصيب بن عبد الحميد أمير مضر على الحجاج حوالى سنة ١٩٠ وإليه تنسب منية الخصيب .

شعره ، وكتبوه وأنشدوه للخصيب ، فاستحضره فأنشده (١) :

أجارة بيتينا أبوك غيورُ
فإن كنت لاخلما^(١) ولا أنت زوجة
وجاورت قوما لا تراورَ بينهم
فما أنا بالمشغوف ضربة لازب
وإني لطرف العين بالعين زاجر
كما نظرت ، والريح سا كفة ، لها
طوت ليلتين القوت عن ذي ضرورةٍ
فأوفت على علياء حين بدا لها
تقلب طرْفاني حجاجي مغارة
ولما قال أبو نواس :

عزير علينا أن نراك تسيرُ
بلى إن أسباب الغنى لكثير
جرت فجري في جريهن عبير
إلى بلد فيه الخصيب أمير
قال له الخصيب : إذا يكثر حسادها ، وتبلغ أملها ، وأمر له بألف دينار .
ويقول فيها :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا
فأى فتى بعد الخصيب تزورُ

(١) عصر المأمون ج ٣ ص ٢٣٤ .

(٢) الحلم : الصديق .

(٣) ندور : نتوء العظم من موضعه .

(٤) شكير : الريش أول ما ينبت .

(٥) الضريب : الثلج أو الجليد .

(٦) الحجاج : العظم ينبت عليه شعر الحاجب . ذرور : ما ينذر في العين من الدواء .

فما جازه جودٌ ولا حلَّ دونهُ
فتى يشتري حسنَ الثناءِ بمالهِ
ولم تر عيني سُوددًا مثلَ سُوددهِ
وأطرقَ حياتُ البلادِ لِحيَّتهِ
سموت لأهلِ الجورِ في حالِ أمنِهِمْ
إذا قامَ غنَّتهُ على الساقِ حليَّتهِ
فمن يك أمسى جاهلاً بمقالتي
فما زلتَ توليه النَّصيحةَ يافعا
إذا غاله أمرٌ فإمَّا ككفيتهُ

ولكن يصيرُ الجودُ حيث يصيرُ
ويعلمُ أن الدائراتِ تدورُ
يحل أبو نصرٍ بهِ وَيَسِيرُ
خصيبيَّةَ التصميمِ حينَ تُسورُ (١)
فأضحوا وكلُّ في الوثاقِ أسيرُ
لها خطؤه عند القيامِ قصيرُ
فإن أميرَ المؤمنين خبيرُ
إلى أن بدافى العارضين قتيرُ (٢)
وإما عليه بالكفاءِ تشيرُ

ويصف منازلَه بالطريقِ حتى يصل إلى القسطنطينية ، ثم يقول :

زها بالخصيبِ السيفِ والرمحِ في الوغى
جوادٌ إذا الأيدي كففن عن الندى
له سَلَفٌ في الأعجمين كأنهم
وإني جديرٌ إذ بلفتك بالمنى
فإن تولنى منك الجميل فأهله

وفي السلم يزهو منبر وسرير
ومن دون عوراتِ النساءِ غيور
إذا استؤذنوا يوم السلامِ بدور
وأنت بما أملت منك جدير
وإلا فإني عاذر وشكور

وقلدها كثير من الشعراء ، وسارت يذكرها الأحاديث في الأدب العربي ،
وعدت من عيونهِ إلى الآن .

ولا تخلو وفادة أبي نواس على الخصيب من أخبار ؛ بعضها بعيد عن التصديق
كالقصة التي سبقت هذه القصيدة ، وهناك رواية (٣) عن لقاء أبي نواس للخصيب
في الشام بعد عزله ، وأن أبا نواس لم يعرف صاحبه ، فعرفه بنفسه ، فنزل عن دابته

(١) تسور : تشب .

(٢) قتير : شيب .

(٣) معاهد التنصيص ج ٢ ص ٢٢٢ .

وقبل يده ورجله ، وسأله عن تغير حاله ، ودفع إليه ما كان معه من ثياب وراحلة ونفقة ، فأقسم الخصيب ألا يأخذ شيئاً .

وكان أبو نواس يمتاز بشعره ، ويعرف مبلغ سحره . فقد روى أنه كان مع الخصيب يوماً في مجلس شراب ، وماج الناس بسبب الأسمار ، وتظاهروا ، فقال أبو نواس : دعني أيها الأمير أسكنهم . فقال : ذلك إليك . فخرج أبو نواس حتى وافى المسجد الجامع ، فصعد المنبر وعليه ثياب مشهّرات ، فقال (١) :

منحتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بن خصيب
ولا تتبؤا وثب السفاه فتركبوا على حدّ حامي الظهر غير ركب
فإن يك باق إفاك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب
« وماكم أمير المؤمنين بحية » أكلوا لحيات البلاد شروب »

قال : فتفرق الناس ولم يجتمعوا بعده ، وصدق ظن أبي نواس في شعره .

وحي عن إسماعيل بن أسباط (٢) قال : لما قال أبو نواس :

« منحتكم يا أهل مصر نصيحتي »

رأى الخصيب في المنام قائلاً يقول : يا خصيب ، ما فوق هذا المدح مدح . قال : فما جزاؤه ؟ فأخبره أنه يستحق ألفاً . فلما أصبح الخصيب صبح أبا نواس بألف دينار . فقال أبو نواس قصيدة أخرى في مدحه بدأها بمقدمة تقليدية فيها حديث عن السكر ، وعن الناقة التي حملته إليه (٣) ، ثم قال (٤) :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدققاً فكلاركما بحر

(١) الديوان ص ٧٨ .

(٢) معاهد التنصيص ج ٢ ص ٢٢٣ . (٤) الديوان ص ١٦٩ .

لا تصعدا بي عن مَدَى أَمَلٍ شَيْئاً ، فَالْكَأِ بِهٖ عُدْرُ
ويحق لي إذ صرْتُ بَيْنَكَا أَلَا يَحِلُّ بِسَاحَتِي فَفَقْرُ
النَّيْلِ يُنْعِشُ مَأْوَهُ مِصْرَا وَتَدَاكُ يُنْعِشُ أَهْلَهُ النَّعْمُ

ومدحه بقصيدة أخرى نونية تذكر فيها الكرخ وهو بمصر ، وذكر ما فيها
من حانات وقصور كان يفد عليها للخمر ، أو للنائل النعم ، ثم يخاطب
ابنته فيقول :

يَا ابْنَتِي أَبْشِرِي بِمِيرَةِ مِصْرٍ وَتَمَنِّيْ وَأَسْرِفِي فِي الْأَمَانِي
أَنَا فِي ذِمَّةِ الْخَصِيبِ مُقِيمٌ حَيْثُ لَا تَمْتَدِّي صُرُوفُ الزَّمَانِ
قَدْ عَلِقْنَا مِنَ الْخَصِيبِ حَبَالًا آمَنْتَنَا طَوَارِقَ الْحَدَثَانِ (١)

وغير ذلك من الأبيات .

وهجا الخصيب حين سخط عليه ، هجاء يكذبه مدحه فيه ؛ يقول :

خُسْرُ الْخَصِيبِ مَعْلُقٌ بِالْكُوكِبِ يُجْحَمِي بِكُلِّ مُثَقَّفٍ وَمُشَطَّبِ (٢)

وقال فيه أيضا :

نَفْسُ الْخَصِيبِ جِئِمُهُ كِذْبُ وَحَدِيثُهُ لَجْلِيْسِهِ كَرْبُ
تَبْكِي الثِّيَابَ عَلَيْهِ مُعْوَلَةٌ أَنْ قَدْ يَجْرُ ذِيوَلَهَا كَلْبُ (٣)

أما هجاؤه لهاشم بن حديج فقد تجاوزه إلى أجداده وبعض مواقفهم التاريخية ،
ومنها ما فعله جده بمحمد بن أبي بكر إذ يقول له (٤) :

(١) الديوان ص ٢٩٣ .

(٢ ، ٣) الديوان ص ٨٢ ، والثقف : الريح . والشطاب : السيف .

(٤) الديوان ص ١٣٤ .

ياهاشم بن حُدَيْجٍ لَيْسَ نَحْرُكُمْ بَقِيتُ صِهْرَ رَسُولِ اللَّهِ بِالسَّدَدِ
أَدْرَجْتُمْ فِي إِهَابِ الْعَيْرِ جُنَّتُهُ فَبَيْتُ مَا قَدِمْتُمْ أَيْدِيكُمْ لِغَدِ
إِنْ تَقْتُلُوا ابْنَ أَبِي بَكْرٍ فَقَدْ قَتَلْتُمْ حُجْرًا بَدَارَةَ مَلْحُوبِ بَنُو أَسَدِ

وحُجْرُ المِشَارِ إليه هو والد امرئ القيس ، الذي قصر في الأخذ بثأره
تقصيراً معيباً عند أبي نواس فقال فيه :

أَلْهَى امْرَأَ القَيْسِ تَشْيِيبُ بَغَانِيَةٍ

عَنْ ثَأْرِهِ ، وَصِفَاتُ النُّوَى وَالْوَدِ

وهجوا أهل مصر جميعاً أو عاتبهم عتاباً قاسياً ، ولم يرض إلا عن أحمد بن
حوى العذري الذي كان والياً على الشرطة سنة ١٨٩ هـ . فقال (١) :

دَمُ الكَارِمِ بِالقُسْطَاطِ مَسْفُوحٌ وَالجُودُ قَدْ ضَاعَ فِيهَا وَهُوَ مَسْطَرُوحٌ
يَا أَهْلَ مِصْرَ لَقَدْ غَبْتُمْ بِأَجْمَعِكُمْ لَمَّا حَوَى قَصَبَ السَّبِقِ المَسَامِيحُ
أَمْوَالِكُمْ حِجَّةً وَالبُخْلَ عَارِضَهَا وَالنَّيْلُ ، مَعَ جُودِهِ ، فِيهِ التَّمَسِيحُ
لَوْلَا نَدَى ابْنِ حَوَى أَحْمَدُ نَطَقْتُ مَنِ المَفَاصِلُ فِيكُمْ وَالجُورَارِيحُ

وتجد في شعر أبي نواس بمصر كثيراً من خصائصه ، وشيئاً من أثر البلاد
والرحلة والمدوح في شعره .

فأثر البلاد ظاهر في إشارات أبي نواس إلى تاريخها ، وبخاصة فرعون وموسى
والعصا والحية والنيل والتماشيح . وما سمعنا بمثله هذا في غير شعره المصري .
كما كان للتاريخ الإسلامي أثر في شعره عندما هجأ آل حديج بقتلهم لصهر رسول
الله . وقد تردد اسم الحصيب وهاشم بن حديج ومصر في شعره كثيراً .

٣ — أبو تمام :

وهو الشاعر الذي اختلف فيه ؛ ونسب إلى مصر . والمشهور أنه ولد في قرية « جاسم ^(١) » بالشام (سنة ١٩٠ هـ) وأنه عربي طائي ، ولكن قل أن سلم شيء من ذلك ولم يختلف فيه ، حتى دين أبيه . وهو خلاف لا يؤثر كثيراً في شاعرية أبي تمام ، والذين نسبوه إلى مصر لا يستطيعون أن يجدوا في شعره من أثر البلاد وتاريخها مثل ما وجدوا لأبي نواس .

قيل إنه جاء إلى مصر صغيراً وتربى بها ، وتعلم الأدب وحفظ الأخبار وروى الأشعار ، وأنشد شعره بجامع عمرو ، ومدح وهجا . ثم خرج من مصر ساخطاً ومدح وهجا قوما آخرين في بغداد وغيرها .

وفي ديوانه من أشعاره بمصر شيء كثير ، بعضها في مدح عيَّاش بن لهيعة يقول فيها ^(٢) :

رأيتُ لعيَّاشٍ خلائقَ لم تكن لتكْمَلْ إلا في اللُّبابِ المهدَّبِ
له كرمٌ لو كان في الماء لم يَنْفِضْ وفي البرقِ ماشامَ امرؤُ بَرَقَ خُبابِ

إلى أن يقول :

وأنتِ بمصرٍ غايي وقرايتي وببَنو أبيك فيها بنو أبي
ولاغروا إن وَطَّأتَ أكنافَ مرتبي لهملِ إخفاضي ، ورفَّهتَ مشربي
فقومت لي ما عوجَّ من قصد همتي

وبَيَّضت لي ما اسودَّ من وجهِ مطلبي
كما مدح المعتصم — أو المأمون — بقوله ^(٣) :

(١) على بعد ثمانية فراسخ من دمشق . (٢) الديوان ص ٢٤ .

(٣) ص ١١٢ .

فانتاش مصر من اللتيا والتي بتجاوزز وتعتطف وتتمد
وقد أشار إلى تنقله في البلاد ومنها مصر فقال (١) :

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقتين وبالفسطاط إخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تشافيه بي أقصى خراسان
خلفت بالأفق الغربي لي سكنا قد كان عيشي به حلواً بخلوان

وسبق له أبيات في انتصار عبد الله بن طاهر على ابن السرى (٢) . وفي رثاء
عمير بن الوليد والى مصر سنة ٢١٤ (٣) .

وعاتب عياش بن طبيعة (٤) لأنه لم يكافئه على مدائحه ، ولم يحسن إليه بما أحسن
فيه من أشعار .

وضاق رزقه بمصر ، فدعا لدمشق أن يجودها الحيا لجود أهلها ، وفدى بنفسه
أرض الشام ، التي عدته عنها غربة النوى مكرها خمسة أعوام ، فقال (٥) :

أخسة أعوام مَضَتْ لغيره ؟

وشهران ، بل يومان ، تُكَلُّ من الثكلِ
تواني وشيك النجج عنه ، ووُكَلَّتْ به عزماتٌ أوقفتُه على رجلِ

لقد طلّمت في وجه مصر بوجهه - بلا طالع سعدٍ ولا طائر سهلٍ -
وساوسُ آمالٍ ومذهبُ همةٍ - نغيمةٍ بين المطية والرحلِ -

(١) الديوان ص ٣٢٣ .

(٢) الكندي ص ١٨٠ ، ١٨٣ .

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

(٤) الديوان ص ٤٢١ .

(٥) الديوان ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .

نأيتُ ، فلا مالاً حويتُ ، ولم أقم فامتّع ، إذ جُئمتُ بالمال والأهل
 وفي أبيات أبي تمام هذه من الثورة النفسية والألم المرير ما ليس في حاجة إلى
 التعليق . وكان ينتظر من عياش بن طيعة شيئاً كثيراً فلم يحقق أمله ، فهجاه في
 كثير من القصائد حياً وميتاً . ومن هجائه فيه ميتاً قوله ^(١) :

يا من أعرَضَ اللهُ عن العالم من بُغِضِهِ
 ويا من بعضه يشهد بد بالبغض على بعضه
 ويا أثقلَ خلق الله من ماشٍ على أرضه
 ومن عاف عليك الموت واستقدر من قبضه

وترى لهذا البيت الأخير صدى في قصيدة أبي الطيب المتنبي ، التي قالها في
 هجاء كافور وقومه وهو هارب من مصر ، إذ يقول :

ما يقبض الموتُ نفساً من نفوسِهِمْ إلا وفي يده ، من تنهها ، عود
 وهجا أبو تمام شاعراً من شعراء مصر اسمه يوسف السراج . واستكثر
 عليه أن يكون أديباً وهو سراج ، فقال له ^(٢) :

أيوسفُ جئتَ بالمعجبِ المعجيبِ تركتَ الناسَ في أمرٍ مُريبِ
 سمعتُ بكل داهية نَادٍ ولم أسمع بسراجٍ أديبِ
 أما لو أن جهلك كان علماً إذا لنفدتَ في علم الغيوبِ
 فإلك بالفريب يدٌ ، ولكن تعاطيك الفريب من الفريبِ
 فلو نبش المقابر عن زهيرٍ لصرح بالمويل وبالنجيبِ
 متى كانت قوافيه عيالاً على تفسير بقراط الطيبِ

فكيف ولم يزل للشعر ماءً يرفُّ عليه ريحانُ القلوبِ
أرى ظلميكَ إنصافاً وعدلاً وذنبى فيك تكفيرَ الذنوبِ

وقد كان هذا النقد ، الذي وجهه أبو تمام إلى يوسف السراج في شعره ، سهما صوبه عبد العزيز الجرجاني في الوساطة إلى أبي تمام نفسه ؛ فإنه أورد الأبيات الثلاثة التي قبل الأخير ، وعلق عليها بأن أبا تمام نفسه لم يتبع ذلك في شعره ؛ فاحتاج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطوليس (١) .

وهجا عيسى بن يزيد الجلودى لما انهزم في موقعة « النوية » أمام أهل الحوف سنة ٢١٤ . وقد تقدم بمض هذا الهجاء ، وهجا المطلب الخزاعي وكان مدحه (٢) .

وكذلك كانت حياته في مصر مدحا وهجاء كما كانت حياة أبي نواس . وكنت أود أن أنسب أبا تمام لمصر معتمداً على ما قيل من نشأته بها ، لولا أن هذه النشأة لم تترك أثراً كبيراً في شعر أبي تمام ، فيما عدا الموضوعات والأشخاص الذين هجأهم ومدحهم . والأثر الذي تركته فيه هذه الحياة بمصر أقل مما تركته في أبي نواس ، الذي جاء في زيارة قصيرة ثم رحل .

٣ — دعبل بن علي الخزاعي :

وهناك شاعر آخر له بمصر مدح وهجاء ، وهو دعبل بن علي الخزاعي المتوفى سنة ٢٤٦ هـ . وكان دعبل هجاء خبيث اللسان ؛ جاء إلى مصر طامعاً في نوال رجل من أقربائه ، وهو المطلب بن عبد الله الذي ولى مصر مرتين إحداهما سنة ١٩٨ والثانية سنة ١٩٩ هـ .

(٢) الديوان ص ٤٩١

(١) الوساطة ص ٢٣

أما وفاة دعبل عليه فقد انتهت روايتها في الأغاني^(١) إلى دعبل نفسه . فقد روى أنه رجع من الحج ، إلى مصر ، فلقى بالطريق رجلا يقال له أحمد السراج ، وكان مع دعبل أخوه رزين ، وبدالهما من حسن أدب السراج ما عطف قلبهما عليه ، فتبرعا له بقصيدة من شعرها ينشدها ، ويأخذ عليها جائزة من المطلب الخزاعي . فلما وصلوا مصر ودخلوا على المطلب خيب السراج ظنهما - وكان أسبق دخولا عليه - فأنشده من شعره مدحا قال فيه :

إني استَجَرْتُ بِأَسْتَارَيْنِ مَسْتَهَامًا ركنين ، مُطَلِّبًا وَالْبَيْتَ ذَا الْحُجْبِ
فذاك لِلْأَجْلِ الْمَأْمُولِ الْمَيْسَةِ وأنتَ لِلْمَاجِلِ الْمَرْجُوِّ وَالطَّلَبِ
هذا ثنائى ، وهذى مصر سائحةً وأنتَ أنتَ ، وقد ناديتُ من كَثَبِ

فصاح مطلب : لبيك لبيك . ثم قام إليه فأخذ بيده وأجلسه معه . وقال : يا غلمان ، اليمدّر . فأحضرته . ثم قال : الخلع . فنشرت . ثم قال : الدواب . فأمر له من ذلك بما ملأ عينيه وأعيننا وصدورنا ، وحسدناه عليه . وكان حسدنا له بما اتفق له من القبول وجودة الشعر ؛ وغيبطنا بكتمه إيانا نفسه ، واحتيااله علينا أكثر وأعظم . نخرج بما أمر له به وخرجنا صفرا . وغاز ذلك دعبلًا ؛ فهجا المطلب .

وقيل إن سبب غضب دعبل عليه من أول يوم أنه كان جاء إلى مصر أيام ثورة رجل من العلويين ، وكان المطلب قد وكل بالأبواب من يمنع الغرباء دخولها ، فممنع دعبل ، فأغلظ لمن منعه ، فتمنعه بالسوط وحبسه . فمضى أخوه رزين فأخبر المطلب ، فأمر بإطلاقه ؛ ودعا به فخلع عليه . فقال له : لا أرضى أو تقتل الموكل بالباب . فقال له : هذا لا يمكن لأنه قائد من قواد السلطان فغضب وهجا .

ثم ولاء المطلب أسوان ، ولما بلغه هجاؤه عزله . ومن هذا الهجاء قوله :
تَلِصِقُ مِصْرُ بَكَ المِخْرِيَاتِ وَتَبْصُقُ فِي وَجْهِكَ المَوْصِلُ
وَعَادَيْتَ قَوْمًا فَمَا ضَرَّهمْ وَشَرَّفْتَ قَوْمًا فَلَمْ يَنْبُكُوا
شِعَارُكَ عِنْدَ الحُرُوبِ النِّجَا وَصَاحِبُكَ الأَخَوَرُ الأَفْشَلُ
فَأَنْتَ إِذَا مَا التَّقَوَّا آخِرُ وَأَنْتَ إِذَا أَنهَزَمُوا أَوْلُ

وقال مجرد قبيلته من شهرتها القديمة في الكرم ، بسبب لؤمهم الحديث الذي
أكسبهم مطلب إياه وكأنه يقول : تمارضا فتساقطا . وذلك إذ يقول :

اضرب ندى طلحة الطلحات مُتَّئِداً

بلؤم مطلب فيتنا وكن حكماً
تخرجُ خِزَاعَةً مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ فَلَا تَعُدُّ لَهَا لُؤْمًا وَلَا كَرَمًا
ولما عزله عن أسوان بسبب هذا الهجاء ، أنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له
وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة ، فإذا علاه فأوصل الكتاب إليه ،
وامنعه من الخطبة ، وأزله عن المنبر واصعد مكانه .

فلما أن علا المنبر وتجنح ليخطب ، ناوله الكتاب ، فقال له دعبل : دعني
أخطب فإذا نزلت قرأته . قال : لا ، قد أمرني أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه .
فقرأه . ونزله عن المنبر معزولا .

أما مدحه في المطلب فقد روى الأغاني منه بيتين لفظهما قليل ، ومعناها كثير
إذ مدحه بالجود ، ولام من يقصدون غيره ، وعجب منهم ، وقدم أسرته عند الفخر
بالكثرة ، وقدمه يوم التفاخر بالواحد ، وذلك إذ يقول :

أَبْعَدَ مِصْرٍ وَبَعْدَ مُطَلِّبٍ تَرْجُو الغِنَى ؟ إِنْ ذَا مِنْ العَجَبِ !

إن كانوا جئنا بأسرته وإن وآحدونا ، جئنا بطلب
ولا نسي آيات دعبل التي شيع بها المطلب ساخرًا متهاكم^(١) . عند ارتحاله
من مصر إلى الحجاز .

هذا هو الشعر العربي في مصر زمن العباسيين ، وهؤلاء هم رجاله . والمصري
منه شعر حفظته بعض كتب التاريخ والقضاء ، ونذر وجود شيء منه في كتب
الأدب كما سبق . وأكثره مقطعات ومختارات تساق استشهاده فيحذف منها كثير ،
ويستغنى عن أوائلها وأواخرها غالباً ، وقد لا تكون مرتبة كترتيبها في الأصل .
وتحس من قراءة ما اختاره الكندي أن الشاعر ينتقل انتقالاً مفاجئاً ، وأن المعاني غير
مسلسلة . ودليلنا على أن هذا الاختيار لا يتفق مع الأصل دائماً تلك الآيات التي
جاء بها لأبي تمام في هجاء الجلودى ، فقد روى منها ستة آيات بدأت من العاشر
ووراءه البيت العشرون . وتلك القصيدة الدالية في رثاء عمير بن الوليد فإنها أربعون
بيتاً في الديوان لم يذكر منها إلا أربعة آيات غير متتامة .

وليس من العدل أن نطالب مؤرخاً برواية القصائد كاملة ، فليس ذلك من
عمله ، ولكن الاقتصار على كتب التاريخ وحدها ، مع فوائدها التي لا توجد في
غيرها ، لا يصور الأدب في نواحيه المتعددة .

ولا بد أن يكون التعليق عليه محدوداً . فطالع قصائده غير معروفة ، والحكم
عليها لا يعتمد على أساس من الشواهد ، والانتقال من هذه المطالع إلى الأغراض
الأصلية غير معروف . وإن غلب على الظن أنه كان مع التمهيد وحسن الربط ،
لا مفاجئاً كما كان في العصر الجاهلي مثلاً . وروى فيه حسن التخلص من المقدمة إلى
الغرض .

وارتباط الآيات ، وحسن تأليف العبارات ، وحسن المعاني ولطفها ،

(١) ص ١٦٩ من هذا الكتاب ، الكندي ص ١٦٩ .

ويختلف الحال عن ذلك كثيراً في الشعر العباسي . فإنه كان دواوين كاملة ،
فستجرت الفرص لدراسته دراسة واقية ، وعرفنا منه صلته بالشعر القديم ، ومدى
بعده عنه واقترابه منه ، وخصائصه وبواعثه ومميزاته ، والعوامل التي وجهته إلى
الحضارة ووصفها ، أو المدح والمبالغة فيه ، أو الفلسفة والعناية بها ألفاظاً ومعاني ،
أو السياسة واشتراكها فيها ، أو البديع وغلبته عليه ، وغير ذلك .

وكان شعر الواقفين على مصر شعر مدح وهجاء . يمتاز بحسن البيان ، والبعد
عن التكلف ، والبراعة في أداء المعاني المتشابهة بعبارات قوية جميلة . أما هذه المعاني
فكان أكثرها مما شاع في المدح والهجاء . وقليل منها كان من وحي البلاد ،
كهجاء أبي نواس لأهل مصر ؛ أو من وحي المهجو نفسه ، كقصيدة أبي تمام
في يوسف السراج .

الفصل العاشر

شعر الطولونيين

كان للأدب العربي رعاة من الملوك والأمراء ، يعطفون على شعرائه وكتابه في زمن الأمويين والعباسيين ، وكان هؤلاء جميعاً أدباء ، يتذوقون الأدب الرفيع ، ويمجبون بالأخبار الطريفة ، والروايات المستملحة ؛ إعجاباً بالأدب لذاته ، أو لماله من آثار سياسية أو خلقية أو حماسية .

وكان من هؤلاء في مصر عبد العزيز بن مروان ؛ الذي ازدهر الشعر في أيامه ازدهاراً عظيماً ؛ إذ مكثه طول عهده في البلاد أن يرعى الأدب ويكون مقصداً للأدباء . وقد حدث هذا بمصر نادراً ، لا لقلة الولاة الأدباء الذين كانوا يعطفون على الأدب ورجاله . ولكن أقصر عهودهم ، وعدم استقرار البلاد . وظل كذلك حتى استقرت الأمور لبني طولون ، ثم للاخشيديين فتأثر الشعر بذلك كثيراً .

١ - في عهد دولتهم (٢٥٤ - ٢٩٢)

وكان من المنظور أن يرقى ابن طولون بالشعر ، وأن يعرف قدره الأدبي والسياسي ؛ كما عرف فضل الكتابة في خدمة دولته . وكنا نظن خيراً بالشعر في عهده وهو الأديب الذي يقدر الفصاحة قدرها ، ويستخدم كتاباً مجيدين في دولته . ولكن الظاهر من تاريخه أنه لم يكن يرعى الشعر ولا يهتم به . ويؤكد هذا ما روى عنه من إهمال للبحثري ، حتى هجاه بعد مدحه .

وكان خمارويه يود أن تنافس القطائع حاضرتها ، بغداد حاضرة الخلافة ؛ وكان

زواج ابنته قطر الندى ، عاملاً يثير الشعر والخيال ، وكاد ما بلغه هذا الزواج من أهبة وإسراف في مظاهر الترف يفوق المروى في ألف ليلة ولكن أين الشعر الذي قيل فيه ؟ ثم تنازع أصراء بنى طولون بعده حتى ذهبت ريجهم سنة ٢٩٢ هـ .

والشعر الباقى من هذه الدولة كلها قليل محدود الأغراض لا يتجاوز المدح والهجاء ، وقليلاً من الأبيات في بعض الحوادث ؛ لأن النزاع بين الطولونيين والعباسيين خلق عداوة بين القطرين ، فلم يكن من السهل أن يفد على الطولونيين شعراء الحاضرة وهم يومئذ أشهر الشعراء ، وما كانت الدولة هادئة مطمئنة تستطيع أن ترعى الأدب ، ومجتذب الشعراء وذلك للخلافات الداخلية بين الطولونيين بعد خمارويه .

ولكنه لم يعد شعراء يمدحون أو يهجون أو يصفون ، بل إن المقرئى^(١) نقل عن القاضي أبى عمرو عثمان النابلسى في كتاب « حسن السيرة » في اتخاذ الحصن بالجزيرة « أنه قال : رأيت كتاباً قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون ، وقال : فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة ، كم يكون شعرهم ؟ مع أنه لم يوجد من ذلك الآن ديوان واحد ! وفى هذا الخبر ما فيه من المبالغة فإن الباقى من شعر الميدان قليل وكاه فى رثائه . أو وصفه أو الاعتبار به وبمن أنشئوه .

وبقى عندنا شعر متصل بالسياسة والحوادث الجارية ظهر فى مناسبات أكثرها متصل بالتاريخ . ومن غريب الصدق أن يكون أقدم ما بقى منه هجاء ، فقد أمر أحمد بن طولون ببنيان المسجد على جبل يشكر فى صفر سنة ٢٥٩ ، وأمر أيضاً ببنيان المارستان للعرضى .

فقال محمد بن داوود يهجوهم ويستثير الناس عليه^(٢) :

ألا أيها الأغفال إيهياً تأملوا وهل يوقف الأذهان غير التأمل

(٢) السكندى ص ٢١٦

(١) الخطب ج ١ ص ٣٢٧

الم تعلموا أن ابن طولون نعمةٌ تُسِيرُ مِنْ سُفُلِ الْبَيْمِ وَمِنْ عَلِيٍّ
ولولا جنایات الذنوب لما علت عليكم يد العليح السخيف المجهول

فيا ليت مارستانه نيط بإسيته وما فيه من علاج عُثِلَ مَقَلَّل
فكم ضجة للناس من خلف ستره تضح إلى قلبٍ عن الله مُغْفَل

قضى في شعره توجيهاً للناس إلى الواجبات ، ودعوة لهم إلى الثورة عليه ، وذلك إذ جمعه نعمة شاملة ، وجعل هذه النعمة بما كسبت أيديهم ، وأخذ من إصلاحه ومنشأته النافعة سخريته وموضع هجاء ، فدمه ودم القاتلين على مستشفاه ، وأسف في هجائه .

وكان أبو أحمد الموفق يكره ابن طولون ، فتقدم إلى موسى بن بغا في صرفه عن مصر ، فسار حتى نزل الرقة . وبلغ ابن طولون أنه سائر إليه ، وأنه يجد في محاربه ، فابتدأ ببناء حصن الجزيرة سنة ٢٦٣ مقللاً له وحرمة . وبني كثيراً من المراكب الحربية وأطاقها بالجزيرة ، ولكن موسى أقام بالرقة عشرة شهور ثم اضطرب أمر أصحابه ، وتوفي في صفر سنة ٢٦٤ .

وقال محمد بن داوود^(١) :

لما ثوى ابنُ بغَا بالرقتين مَلَا ساقيه زرقاً إلى الكعبين والعقب
بني الجزيرة حصناً يستجِنُ به بالعسف والضرب ، والصناع في تمب
له مراكب فوق النيل راكدةٌ فما سوى القار ، للنظار ، والخشب
يُرَى عليها لباس الذل مذنبت بالشط ممنوعةً من عنزة الطلب

فما بناها لغزو الروم محتسباً لكن بناها غداة الزَّوْعِ للهرب
وهذه فرصة عرضت له لم يهملها ؛ فهجا ابن طولون ، وذم حصنه ومراكبه ،
ورماه بأنه بناها للهرب لا للدفاع والغزو . وكان لا يتورع عن اللفظ القذر كما ثبت
الأول من هذه الأبيات .

وخرج العباس بن أحمد على سلطان أبيه سنة ٢٦٦ هـ ، واضطر أن يذهب إلى
إفريقية للحرب ، وكانت خاضعة لسلطان إبراهيم بن الأغلب ، فبعث إليه ابن الأغلب
بجيش ، فبأمر العباس الحرب بنفسه وحسن بلاؤه . وقال العباس يومئذ (١) :

لله دَرِيٌّ إِذْ أَعْدُو عَلَى فَرَسِي	إلى الهياج ونارُ الحرب تستمرُّ
وفى يدي صارمٌ أَفْرِي الرُّوسَ به	في حده الموتُ لا يُبْقِي ولا يَدْرُ
إن كنتِ سائِلةً عني وعن خَبْرِي	فها أنا الليثُ والصَّمَمِصَامَةُ الذِّكْرُ
من آلِ طُولُونٍ أَصْلِي إن سَأَلْتِ فما	فوق لفتخر بالجود مفتخرُ
ورثت مجد أبي عنه ، وورثني	مجداً أناف به آباؤه الغررُ
لو كنتِ شاهدةً كَرِي « بَلْبِدَةَ » إذ	بالسيفِ أَضْرَبُ والهَامَاتُ تَبْتَدِرُ (٢)
يدعون لا أين ، والعباس يقدمهم	كأنهم مُحْرِبُ والليث مقنن
إذاً لعابنتِ مِنِّي ما تسيرُ به	عني الأحاديثُ والأنبياءُ والخبرُ

وهو نخر شاعر فارس بشجاعته وبآبائه الأجواد .

ولكنه أصيب هو وأصحابه إصابة بليغة ، ورجع هارباً إلى برقة .

ورأى بعض الشعراء في أعمال ابن طولون ما هو جدير بالمدح فمدحه :
فإنه لما هرب المعتمد من بغداد سنة ٢٦٩ ، أرسل إليه أخوه الموفق ، صاعد

(١) ص ٢٥٤ سيرة ابن طولون للبلوي (٢) لبدة : مكان المعركة .

ابن مخلد وإسحاق بن كنداج ، فظفرا به ، ورداه إلى سر من رأى . فعقد الوراق لإسحاق على مصر . وعلم ابن طولون بهذا وهو بدمشق ، فكتب إلى أهل مصر من هناك يخبرهم بما حدث للمعتمد ويطلب منهم خلع الوراق وجهاده .

وقال قعدان بن عمرو يمدحه بالدين والشجاعة وحسن القيادة ، ويمدح الخليفة معه ، ويحث الناس على الخروج لنصرة الخليفة^(١) :

طال الهدى بابن طولون الإمام كما
قاد الجيوش من الغسقاط يقدمها
في جفيل ، الدنيا في مقابله
يسمو به من بني سام عطارفة
لو أن روح بني كنداج معلقة
حاط الخلافة والدنيا خليفتنا
يا أيها الناس هبوا ناصرين له
يزهو به الدين ، عن دين وإسلام
منه على الهول ماض غير محجام
مكلمين بين رايات وأعلام
بيض ، وأسود أسود من بني حام
بالمشترى لم يقوته ، أو بهرام
بصارم من سيوف الله صمصام
مع الأمير يد لهم الخيل في اللام

وهذا مدح سياسي في غايته ، فالثناء على الوالى وأفعاله ، والدعوة إلى نصرة الخليفة ومن يدافع عنه يحمل في طياته تأييداً لسياسته ، وتبشيراً بحسن سيرته .

وقال قعدان بن عمرو مرة ثانية ، يستنهض الناس لنصرة الخليفة ، ويدعوهم أن ينضموا إلى ابن طولون في دفاعه عنه :

من مبلغ مضر الشام وما حوت
ما بالكم هضم جناح سنانكم
مصر ومن هو منهم أو منجد
بتوا كل من فعلكم لا يحمده

أَتَى، وكيف يطيبُ من أحوالكم^(١) ، خفض المعيشة والإمامُ مقيدُ !
حزان أفرِدَ من بَنِيهِ وأهله بأبي وأمي المستنظام المفردُ !

وقال منصف^(٢) بن خليفة الهذلي يمدح أفعاله ، ويشير إلى سعة ملكه ،
وإخلاص أهل مملكته له ، ودفاعه عن الخليفة دفاعاً مجيداً^(٣) :

يا عُمرَةَ الدينِ الذي أفعالهُ غررُ بها كل الوري تتعلَّقُ
أنت الأميرُ على الشامِ وتغرِّها والرَّقَّتَيْنِ وما حواه الشرقُ
وإليك مصرُ وبرقّةٌ وحجازُها كلُّ إليك فؤاده متشوّقُ
هتاك الخِلافة صاعدٌ وخليله إسحاقُ لِعِبا، والحسودُ الأخرقُ
أسيافُنا بيضُ النونِ فليتها ينَجِّيع من خذل الإمام تُخَلِّقُ^(٤)
تُمسى وتُصبح ضارباً من دونه يمهّد منه الختوفُ تفرِّقُ

وهو شعر سياسي كسابقه يرمي الشاعر من ورأه إلى بيان فضل ابن طولون
على الخليفة ، وتبرير حربه مع الموفق ، ورضا الناس عن سلطانه في البلاد
التي يحكمها .

وقال الوليد بن عبيد البحرى ، قصيدة طويلة في مدح أحمد بن طولون
ومنها^(٥) :

فأصبحتُ في بغدادَ لا الظلَ واسعَ ولا العيشَ ظلَ في غمضارته رطِبُ

(١) في الكندي (يذيب . . . الكم) فأكملتها بما يمكن أن يتم به المعنى .
(٢) في سيرة ابن طولون للبلوى ص ٣٠٠ أنه من شعراء الشام . وله قصيدة نونية
هناك في معنى هذه القصيدة :
(٣) الكندي ص ٢٢٨ .
(٤) النجيع = الدم . تخلق = تعطر .
(٥) ديوان البحرى ج ٣ ص ٧٧ . والمشهور أنه « الوليد بن عبادة »

أمدح عمال الطَّسَاسِيحِ رَاغِبَا

إِلَيْهِمْ ، وَلى بِالشَّامِ مُسْتَمْتِعٌ رُغْبٌ (١)

وعند أبي العباس لو كان دانيأ

نواحي الفناء السهل والكنف الرحب

وكانت بلائ نيتي عنه ؛ والغنى ، غنى الدهر ، أدنى ما يُنَوَّلُ أو يجبو

ثم يصف الخارجين عليه وينمهم فيقول :

وكانوا ثمودَ الحِجْرِ حَقَّ عَلَيْهِمْ وَقُوعَ العَذَابِ ، وَأُخْصَى لَهُمْ سَقْبٌ (٢)

وما شك قوم أوقدوا نارَ فتنةٍ وَسِرَّتْ لَهُمْ ، فِي أَنْ نَارُهُمْ تُحْبَو

كأن لم يروا « سيما الطويل » وجمعه

ولو لم يحجز لؤلؤٌ بفراره لكان لصدر الرمح في لؤلؤ ثقب (٤)

ويقول عن هؤلاء الخارجين على ابن طولون :

مخاذيل لم يستر فضائح فعلهم وفاء ، ولم ينهض بغدرهم شغب

أخاف كآني حامل وزر بعضهم من الذنب أو أني لبعضهم إلب

وما كان لي ذنب فأخشى جزاءه وعفوك صر جوب وإن كان لي ذنب

(١) الطَّسَاسِيحُ = النواحي : رغب = متسع .

(٢) السقب ولد الناقة وهو الذي أنذر ثمود بالهلاك . فكأن خصام كانت نذير هلاك كما كان السقب لثمود .

(٣) سيما الطويل : كان حاكم على أنطاكية . قتل سنة ٢٦٥ في معركة بينه وبين ابن طولون . سيرة البلوي ص ٩٦ .

(٤) كان لؤلؤ مولى لابن طولون ثم غدر ، وانضم إلى الموفق

وتاريخ هذه القصيدة سنة ٢٦٩ هـ لما خرج ابن طولون إلى الشام . وكان الشاعر يطمع في عطاؤه على هذا المدح . ويظهر أن ابن طولون لم يعطه شيئاً فهجاه ولامه على تعرضه لهذا المهجاء ، ورماه بالجهل فقال من قصيدة طويلة :

ولولا غُلُوُّ الجهل ما عُدَّ هَيِّنًا تكبُّدُ سُخْطِي واضِطِّلاءُ حَرِيقِي
ثم يقول فيه هاجياً :

وعاهرة أدَّتْ إلى عَسِيرِ عَاهِرِ مَسَاهِرَةِ كَلْبٍ فِي الكلابِ عَرِيقِ
لَيْلِيُخِ أَوْ طُولُونِ يُعْمَرِي ، ففقدحت على اثنتين : زوجٍ منهما وعشيقٍ^(١)
وهكذا الشعراء يسرفون في المدح والمهجاء .

وارتحل ابن طولون من أذنة إلى المصيصة ، فأقام بها أياماً ، وعرضت له علته التي كان منها حقه ، فأغذَّ في السير إلى مصر ، والعملة تزيد عليه حتى بلغ الفرما ، فركب في الليل إلى الفسطاط ، فدخلها يوم الخميس ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٢٧٠ ، وظلت العملة تأتي عليه شيئاً فشيئاً حتى مات في ١٠ من ذي القعدة سنة ٢٧٠ ، فحزن عليه المعتمد واشتدَّ وجده ، وقال يرثيه^(٢) :

إلى الله أشكو أسي عمَّاني كوقع الأسَلِ
على رجلٍ أروعٍ يُرَى فيه فضلُ الرَّجُلِ
شهابٌ خبا وقُدَّه وعارضُ غيثٍ أفلِ
شكت دولتي فقده وقد كانت زينَ الدَّوَلِ
إذا أمَّه القاصدُونَ حباؤهم جميعَ الأملِ

وهذا رثاء عام يدور حول فضل ابن طولون وكرمه ومنزلته في الدولة ، وهو

(١) يلبخ = كان زوجاً لأم أحمد بن طولون بعد موت أبيه .

(٢) سيرة ابن طولون للبلوي ص ٣٥٨

أشبهه بالحديث ، وكان أولى بالخليفة أن يذكر فضله عليه في تثبيت ملكه ، ولكن منعه عن الخلافة من أن يشير إلى شيء من ذلك .
وقال ابن داود يهجوّه بعد موته ويفحش^(١) :

عَرَّجَ عَلَى الْيَحْمُومِ فَانزَلَ بِهِ فَاسْلَحْ عَلَى قَبْرِ ابْنِ طُولُونَا^(٢)
وَيَخَاطِبُ هَذَا الْقَبْرَ فَيَقُولُ :

يَا حِقْرَةَ النَّارِ الَّتِي أَضْرَمْتَ وَظَلَّ فِيهَا الرَّجْسُ مَدْفُونَا
لَا تَجْمَلِي لِبَسَةِ جِسْمَانِهِ إِلَّا الْأَفَاعِي وَالْتِمَائِينَا

ويرى أن الذين فقدوه وأصيبوا به هم إبليس والشياطين ، وهم الذين يعزون فيه لأنه كان ولياً لهم ، ويفسد في الأرض مثلهم فيقول :

فَعَزَّ إِبْلِيسَ بِهَا أَوْلَا وَعَزَّ مِنْ بَعْدِ الشَّيَاطِينَا
وَقُلْ لَهُمْ : قَدْ كَانَ يَكْفِيكُمْ وَبِهَيْتِكَ الْمَعْرُوفِ وَالْدِينَا
ثُمَّ مَضَى غَيْرَ قَقِيدٍ ، وَلَا كَانَ حَمِيداً مُعْمَرَهُ فِينَا
وقال أيضاً :

مَضَى غَيْرَ مَفْقُودٍ وَمَا كَانَ عَمْرَهُ سَوَى نَقْمَةٍ لِلخَلْقِ شَتْمَاءَ صَيِّمٍ
لَقَدْ زِيدَ فِي الْيَحْمُومِ بِالرَّجْسِ لَعْنَةً وَلَمْ يُسَقَّ بِالرَّجْسِ تَرْبُ الْمُقْتَمِ
وَلَمْ تَبْكِهِ الْأَرْضُونَ ، لَكِنْ تَبَسَّمَتْ سروراً ، وَلَوْلَا مَوْتُهُ لَمْ تَبَسَّمِ
يَبْشُرُهُ إِبْلِيسُ عِنْدَ قَدُومِهِ عَلَيْهِ بِأَحْسَى بُقْمَةٍ فِي جَهَنَّمِ
لَقَدْ طَهَّرَ الْأَرْضُونَ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ وَمِنْ وَجْهِهِ ذَاكَ ، الْكُرْبِيِّ الْمَوْرَمِ
فَلَا سَقَيْتَ أَجْدَانَهُ صَوْبَ مُزْنَةٍ وَأَنْى وَفِيهَا شَرُّ أَوْلَادِ آدَمِ !

(٢) اليعموم إسم الجبل المشرق الذي كان فيه قبره

(١) الكندي ص ٢٣١

وإعمل ابن داود كان موتورا أو ساخطا أو محروما أو مأجورا ، فحمل هذه الحملات العنيفة على ابن طولون في حياته وبعد مماته ، وهي بعيدة عن تصويره على حقيقته ، ولكنه الشعر والشعراء .

ومن شعر هذا العصر قصائد للكاتب جعفر بن جدار بعيدة عن التاريخ والسياسة فتخف وترق .

ومن ذلك أبيات في صديق له يمدحه ويماتبه ويطمع في خيراته^(١) :

يا ابن المقفع في البياء ن ويا إياساً في الذكاء
يا ناظراً في المشكلات العضلات ، ويا ضيائياً
إيها ، جعلت فداك ! فميم طويتني طي الرداء ؟
ورغبت عما كنت ترغب فيه من لطف الإخاء
من بعد أني كنت عندك وابن أمك بالسواء
فوحق كفك ، إنها كف كالأخلاف السماء
لأخلى لك والهوى ولأصبرن عن اللقاء
ولأشكونك ما استطعت إلى حفاظك والوفاء
ولأصبرن على رقيبك في ذرى درج العلاء
فهناك أجنى ما غرست إليك من ثمم الرجاء
وقال في مغنية جميلة^(٢) :

جاءت بوجه كأنه قرُّ على قوام كأنه عُصنُ

(١) اسمه « جدار » أحياناً . قتله ابن طولون سنة ٢٦٧ لأنه عداه مسئولاً عن ثورة العباس على أبيه : معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٤ .

(٢) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٥ . وله قصيدة في الغزل أزهقها باليدع فتقلت به (العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٦) .

ترنو بعين إذا تعابها حسبت أن في جفونها وسن
حتى إذا ما استوت بمجلسها وصار فيه من حسنها ون
غنت فلم يبق في جارحة إلا تمنيت أنها أذن

وفي هذه الأبيات حسن تعبير عن إعجابه بهذه الغنية ، ومدح لجمال صوتها ،
ودليل على فتنة الشاعر واستغراقه ، ولهذا تمنى أن تكون كل جارحة فيه أذنا ليكون
لها حظ التمتع والسرور ، وينال من ذلك النعم الجميل أكبر قسط ينعم به
الجسد والروح .

ومن شعره في ثقلأ زاروه فأكلوا ، واستولوا على الباقي وهم خارجون^(١) :

زارني زورٌ نكلتهم وأصيبوا حينما سلكوا
أكلوا حتى إذا شبعوا حملوا الفضل الذي تركوا

وفي سنة ٢٧٢ هـ خرج أبو الجيش خارويه إلى دمشق وهزم إسحاق بن
كنداج ، وتبعه حتى سر من رأى ، فقال القاسم بن يحيى المريعي^(٢) يمدحه ،
ويصف كثافة جيشه وهزيمة عدوه :

أنا أبو الجيش الأمير بيئته فشرّد عنا الجور وافتقر المسر
فإن تك أرض الرقين به اكتست ضياء وإشراقا ، لقد أظلمت مصر
فسائل به إسحاق إذ سار نحوه بجيش كمرض النيل يقدمه النصر
تباعدت الأقطار منه كثافةً ففي مشرق قطر وفي مشرق قطر
فأبلس إذ قيل الأمير بيئته

وأضحى ضعيف العقد إذ عقد الجسر^(٣)

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٦ .

(٢) المريعي من شعراء مصر المشهورين ، كان مختصا بخدمة خارويه (المغرب ص ١٠٢)

(٣) أبلس : يئس وتعجز . بلس : بلد بشط القرات .

وفا رأى الجيش ابن كنداج مقبلا
فولى شريداً ذا ارتياع كأنه
لئن مرَّ إسحاقَ النجاة بنفسه
فلا يُغَبِّطُنْ بالعيش من بعد هذه
أرته المنايا الحمرَ أعلامه الحمرُ
بكل بلاد ضائرُ ماله وكرُ
لقد ساءه في جمعه القتلُ والأسرُ
فقد كَسَّرَتْهُ كسرةً مالها جَبْرُ

وافتقار العسر في البيت الأول غريب . وفي الشعر كثير من البديع ، وزينته
بلا تكاف ولا ثقل .

ويبلغ خمارويه أن محمد بن ديوداد المعروف بابن أبي الساج خارج إليه
فلقية خمارويه فهزمه بثنية العقاب من أرض دمشق سنة ٢٧٤ ، فقال القاسم بن
يحيى المريعي^(١) :

فتوح الأمير نجومٌ تلوحُ
تسير لها في جميع البلادِ
إذا حاد عن أمره حائدُ
نصحنا لشر بني ديودادِ
ولم يكن الغدر مستقبحا
تعاطى نطاحَ كباش الحروبِ
أئن كان ولي سلينا صحيحا
أباح حماء فتى لم يزل
إذا هو لم يسترح من عدوِّه
وإن همَّ بالسير لم يثنه
فليس تقاس إليها فتوحُ
ركائب تغدو بها وروحُ
أناح له الحتف منه مُتبيحُ
بتحذيره لو أطيع النصيحُ
وفي الغدر شين وعار قبيحُ
فغودر وهو صريع بطيحُ
فما القلب منه سليم صحيحُ
يحوط حمى وحمى يستبيحُ
فليس إلى لذةٍ يستريحُ
سنيحُ يَمُنُّ له أو يريحُ

(١) الكندي ٢٣٨ .

وفي البيت الأول معنى لطيف وتشبيه غير مألوف ، وهو تشبيه الفتوح
بالنجوم . وقال الوليد بن عبيد البحرى :
وقد رأيت جيوش النصر مُنَزَّلَةً على جيوش أبي الجيش بن طولونا
يوم الثانية إذ ثنى بكرته في النقع خمسين ألفاً أو يزيدونا
مظفر لم يزل يلقي بطلمعته كواكب السعد والظير الياميننا
يعشى قريباً من الأعداء ، لو وقفوا بالصين من بعدها ، ما استبعد الصيننا
ومات الموفق سنة ٢٧٨ .

ثم توفى المعتمد سنة ٢٧٩ ، وبويع للمعتضد بن الموفق بالخلافة فبعث خمارويه
إليه بالهدايا ، وكتب إلى خمارويه في ربيع الأول سنة ٢٨٠ بولايته هو وولده
ثلاثين سنة من الفرات إلى بركة ... على أن يحمل إليه في كل عام مبلغاً .
وبعث إليه برسوله ومعه الخلع ، وسيف وتاج ووشاح ، وعقد المعتضد على
قطر الندى بنت خمارويه سنة ٢٨١ ، ثم خرج خمارويه إلى دمشق وقتل بها سنة
٢٨٢ هـ ، وحمل إلى الفسطاط فدفن بها فكانت ولايته اثنتي عشرة سنة .
ثم وليها أبو العساكر جيش بن خمارويه في ٩ ذى القعدة سنة ٢٨٢ .

ووليها بعده هارون ، وثار عليه عمه ربيعة والى الاسكندرية ، ثم قدم بجيش
إلى متبويه (إمبابة) وعدى النيل ، ثم هزم وأسر وضرب ألف سوط ثم مات
بعد أيام .

وثار دميانة والى الاسكندرية وبعث المكتفى محمد بن سليمان الكاتب ، إلى
مصر ، فخالفه دميانه ، وأطاعه الحسين بن أحمد الماذرائى ، والتقى جيش هارون
بجيش دميانه فى تميمس ، وذهب هرون إلى المعركة ، ولكنه كان يلهو ويعبث .
فانهز عمّاه شيبان وعدى إحدى سكراته فقتلاه فى صفر سنة ٢٩٢ .

وولى البلاد بعده عمه شيبان ، وكان على يديه ذهاب ملك بني طولون ، ودخل البلاد محمد بن سليمان من قبل المكتفى بالله سنة ٢٩٢ .

وأمر محمد بن سليمان بإحراق القطائع ، ونهبت الفسطاط ، وأخرج من مصر بني طولون ومواليهم ومن يمت إليهم « فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر ، نخلت منهم الديار ، وعفت منهم الآثار ، وتعطلت منهم المنازل ، وحل بهم النذل بعد العز ، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونصرة الملك ومساعدة الأيام »^(١) .

٣ — الشعر في أعقاب الطولونيين :

ووقف الشعر من الطولونيين بعد زوال ملكهم موقفين :
أحدها شامت فيهم فرح بما أصابهم ، مرحب بمن أتى بعدهم ، ممجد لفتوحهم وما كسبوا من نصر مبين .

والثاني شعر حزين باك يرثى دولتهم ويتفجع لما حل بهم ويشير الأشجان لتكبتهم .

وهو في الحالتين شعر موعظة واعتبار ، يذكر بصروف الأيام ، ويدعو إلى التفكير في أحداث الأزمان .

ومن الشعر الأول ما قاله أحمد بن محمد الحبشى يتشقى ويمدح القائد الفاتح^(٢) :

الحمد لله إقراراً بما وهبها	قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا ^(٣)
الله أصدق هذا الفتح لا كذب	فسوء عاقبة الثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدها	وفتح الظلم والإظلام والكربا
لا ريب ، رب هياج يقتضى دعة	وفى القصاص حياة تذهب الريبا

(١) (٢، ١) والكندى ص ٢٤٨ .

(٣) الشعب : التأم واجتمع .

رمى الإمام به عذراء غادره فافتض عذرتها بالسيف واقضيا
محمد بن سليمان أعزهم نفسا ، وأكرمهم في الذاهبين أبا
سرى بأسد الشرى، لو لم يرُوا بشرا أضحى عمرينهم الخطى لا القضيا

إيها علوت على الأيام مرتبة أبا على ترى من دونها الرتبا
هارت بهارون من ذكراك بقعته وشيب الرعب شيباناً وقد رغبا
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأنها من زمان غاب زهبا
وكم ترى تركوا من جنة أنف ومن نعيم جنى من عذرتهم غضبا

وكان هذه القصيدة من وحي أبي تمام في فتح عمورية . وأظهر ما تجد ذلك
الوحي في القافية البائية ، والبحر « البسيط » .

أما الاقتباس من القرآن الكريم والعناية بحسنات البديع ، فمن الصفات
التي كانت تغلب على الشعر في هذا العصر ، ثم أرهقته في المصور التالية .

وقال الحبيشى لأبي على الحسين بن أحمد الماذرائى :

هنيئاً لمصرٍ قد فتحت رتاجها وقُلِّدَتْ ما قُلِّدَتْه بتحكيم
وما الفتح إلا فتح رأيك لا الذى تجمع يوم الجمع من كل مُعَلِّم
وكنت وشيخان غداة لقيته كموسى وفرعون غداة المظم
كفيت الإمام المكتفى ما ينوبه ولم يك يرجوه بكل مُرَجِّم
وما زلت ترى آل طولون قبلها وقد خالفوا السلطان ، منك بصيلم

وقال ابن أبي يعقوب شامتا هاجيا :

الدار بعد تفرق الأظمان مسرورة بتفرق السكان
لم تبد من حزن على أربابها إذ في الترحل راحة الجيران

رحلوا فلا تزلوا بروض حرهم
وعداهم سَكِيلُ الغمام الداني
وتمسّمهم سَطوة الرّحمن
وأكفّ أيديهم عن الإحسان
وأحقها بهم الأركان
فأثابهم بمثوبة الكفران
ماذا أريحت مصر منه وما إلى
أرض العراق ، مضى من البهتان !
ويتسم هذا الشعر بالبعد عن المقدمات والدخول في الموضوع ، أو براعة
الاستهلال وهي التي تلحظ في الإشارة إلى الموضوع من أول بيت .

ثم يصرح بالعبارة ، ولا يخفى الشّمة بهم والرضا عما أصابهم فيقول :
إن كنت تسأل عن جلاله ملكهم
وانظر إلى تلك القصور وما حوت
وإن اعتبرت ففيه أيضاً عبرة
ياقتل هرون اجتثت أصولهم
لم يقن عنهم بأس قيس إذ غدا
وعدية البطل الكمي وخزرج
ذقت إلى آل النبوة والهدى

عظمة ملكهم وعمارتهم :

وكان عز بنى طولون عزيزا ، ومجدهم عظيما ، ورعاؤهم عميما ، ونعيمهم موفورا
وملكهم كبيرا ، وكانت قصورهم مشيدة ، وصورهم ممردة ، وجنائهم ناضرة ،
ورياضهم عاطرة .

واقراً بعض ما كتبه صاحب النجوم في وصف ديارهم وعزهم قال^(١) :

ولما ملك خمارويه الديار المصرية ، بعد موت أبيه أحمد بن طولون ، أقبل على عمارة قصر أبيه ، وزاد فيه محاسن كثيرة ، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه ، المجاور للجامع ، فجعله كله بستاناً ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم ، وأنواع الورد . وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص ؛ وأجرى فيها الماء المدبّر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء ، فينحدر إلى فساقى معمولة ، ويفيض الماء منها إلى مجار تسقى سائر البستان . وغرس في أرض البستان من الرياحان الزروع في زى نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة ، يتماهدها البستاني بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، لئلا يشكلك ذلك على القارىء ، وحمل إلى هذا البستان النخل من خراسان وغيرها ... وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحو ذلك شيئاً كثيراً .

وعمل في هذا البستان مجلساً له سماه « دار الذهب » ، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد في أحسن نقش ، وجعل في حيطانه مقدار قامة ونصف صُوراً بارزة من خشب ، معمول على صورته وصور حظاياها ، والمغنيات اللاتي تغنيه في أحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة ، وفي آذانها الأخراس الثقال ، ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا القصر من أعجب ما بنى في الدنيا .

وجعل بين يدي هذا القصر فسقية ملاءها زئبقاً . وسبب ذلك أنه اشتكى إلى

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٣ .

طيبه كثرة السهر وعدم النوم ، فأشار عليه بالتكبير ، فأف من ذلك وقال : لا أقدر على وضع يد أحد على ، فقال له الطيب : تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل البركة المذكورة ، وطولها خمسون ذراعاً في خمسين ذراعاً عرضاً ؛ وملاها من الزئبق ، فأنفق في ذلك أموالاً عظيمة ، وجعل في أركان البركة سككا من فضة ، وجعل في السكك زناير من حرير محكمة الصنعة في حلق من فضة ، وعمل فرشاً من آدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه ، ويلقى على تلك البركة الزئبق ، ويشد الزناير الحرير التي في حلق الفضة المقدم ذكرها ، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية ، وكان يرى لها في الليالي القمرية منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق .

قال القضاة : ولقد أقام الناس مدة طويلة بعد خراب هذا القصر يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة .

ثم بنى خمارويه في القصر أيضاً قبة تضاهي قبة الهواء سماها « الدكة » وجعل لها الستر الذي يقى الحر والبرد فيسدل حيث شاء ، ويرفع متى أحب ، وكان كثيراً ما يجلس في هذه القبة ليشرق منها على جميع ما في داره من البستان والصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة .

ثم بنى ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه . وبنى أيضاً في داره المذكورة داراً للسياح ، وعمل فيها بيوتاً ، كل بيت لسبع ... وكان من جملة هذه السياح سبع أزرق العينين يقال له « زُرْبِق » قد أنس بخمارويه ، وصار مطلقاً في الدار لا يؤذى أحداً . وراتبه على عادة السياح ، فلا يلتفت إلى غذائه بل ينتظر سحاط خمارويه ، فإذا نصبت المائدة أقبل « زربق » معها وربض بين يدي خمارويه ، فيبقى خمارويه يرمي إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة ، والقطعة الكبيرة من اللحم

ونحو ذلك ، مما على المائدة ... وكان إذا نام خمارويه جاء « زريق » وقعد ليحرسه ، فإن كان قد نام على سريره ربيض بين يدي السرير ، وجعل يراعيه ما دام نائماً ، وإن نام خمارويه قعد قريباً منه وتفطن لمن يدخل أو يقصد خمارويه ، لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة ، وكان في عنق زريق طوق من ذهب ، فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائماً ، لمراعاة زريق له وحراسته إياه ؛ حتى أراد الله إنفاذ قضائه في خمارويه ، كان بدمشق وزريق بمصر ، ولو كان زريق حاضراً لما كان يصل إلى خمارويه أحد . فما شاء الله كان .

فلا عجب أن بكى الشعراء ، واعتبروا ، ووعظوا ، وامتلا شعرهم بالزفرات والحسرات على ما فعلته الأيام بآل طولون وما شادوا من قصور وما كان لهم من ملك كبير . ومن هذه القصائد قول إسماعيل بن أبي هاشم (١) :

قف وقفةً بفناء باب السَّاجِ	والقصر ذى الشرفات والأبراجِ
وربوع قومٍ ازعجوا عن دارهم	بمد الإقامة أيمًا إزعاجِ
كانوا مصايحاً إذا ظلم الدجى	يسرى بها السارون في الإدلاجِ
وكان وجوههم إذا أبصرتها	من فضة مصبوغة أو عاجِ
كانوا الثريا لا يرَامُ حَمَامُ	في كل ملحمة وكل هياجِ
فانظر إلى آثارهم تلقى لهم	علماً بكل نسيّةٍ وفجاجِ
وعليهم ما عشت لا أدعُ البكا	مع كل ذى نظره وطرف ساجِ

وقال سميد القاص (٢) يبكي أيام ابن طولون ، ويرثى له ، وللبلاد والدين والدنيا التي أصيبت جميعاً بفقده ، وجمل هذا البكاء مقدمة للحديث عن عظيم الآثار التي شيدها ، وعن دولته التي أسسها وانظر إليه يقول :

جرى دمه ما بين سحرة إلى تحيرٍ ولم يجز حتى أسلمته يدُ الصبرِ

(١) الخطط ج ١ ص ٣٢٣ والكندى ٢٥٢ .

(٢) الكندى ص ٢٥٣ . خطط القرظي ج ١ ص ٣٢٣ .

وباتَ وقيداً للذي خامر الحشاً
 وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى
 تتابع أحداثٍ تحيِّفنَ صبره
 أصاب على رغم الأنوف وجدعها
 طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها
 فبادوا وأضحوا بعد عزٍ ومنعةٍ
 بينُ كما أن الأسيرُ من الأسرِ^(١)
 بيت على جمرٍ ويضجى على جمر
 وغدرٌ من الأيام ، والدهرُ ذو غدُر
 ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
 بفقدِ بنى طولون ، والأنجمِ الزُّهر
 أحاديث لا تخفى على كل ذى حجر

ثم يبدأ الحديث الخاص ، ويتجه إلى مدح ابن طولون خلقاً وخلُقاً
 بما يليق بأمير عظيم الأفعال ، على الهمة فيقول :

وكان أبو العباس أحمد ماجداً
 كأن ليالى الدهر كانت ، لحسنها ،
 يدل على فضل ابن طولون همة
 جميل الحياء لا يبيت على وتر
 وإشراقها في عصره ، ليلة القدر
 محلقة بين السماكين والغفر^(٢)

ويستشهد بالآثار ، وهي شاهد عدل ، ناطق في صمته بلسان مبين ، ومنها ذلك
 المسجد الذى بناه ابن طولون سنة ٢٥٩ عند المكان المسمى تنور فرعون :

فإن كنت تبغى شاهداً ذا عدالة
 فبالجبل الغربى خِطَّةٍ يشكرُ
 يدل ذوى الأبواب أن بناءه
 بناه بأجرٍ وآسٍ وعمرٍ عمر
 بعيدُ مدى الأقطار ، سامٍ بناؤه
 يخبر عنه بالجبل من الأمر
 له مسجدٌ يفنى عن المنطق الهذر
 وبانيه لا بالضنين ولا الغمر^(٣)
 وبالمرمر المسنون والجص والصخر^(٤)
 وثيقُ الباني من عقود ومن جذر

(١) الوقيد والوقود : الخطب وشبهه . (٢) الغفر = ثلاثة أنجم صغار .

(٣) الضنين = الشحيح . الغمر = الحامل الذى لم يجرب الأمور .

(٤) آس = نوع من الشجر . العرعر = شجر السرو . المسنون = المصقول .

فسيحُ الرحابُ يَحْسِرُ الطرفُ دونه
وتَنسُورُ فرعونَ الذي فوق قُلَّةِ
بني مسجداً فيه ، يفوق بناؤه
تحال سَنًا قنديلُه وضياءَه

وعينُ معينِ الشربِ ، عينُ زكية
كأن وفود النيل في جنباتها
فأرفأها مستنبطاً لمعينها
يمر على أرض المافر كلها
قبائل لا نوء السحاب يمدها

ولا تنس مارستانه واتساعه
وما فيه من قوَامِه وكُفَاتِه
فلاميت القبورِ حسنُ جهازه

وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملاً
ترى أراً لم يبق من يستطيعه
مأزُ لا تبلى وإن بادَ ربُّها
لقد ضَمَّنَ القبرُ المقدَّر ذرعه

ثم انتقل إلى أبنائه وما أصابهم به الدهر حتى وهي عقدهم فتنازت جواهره .
قال :

وقام أبو الجيش ابنُه بعد موته
كما قام ليثُ الغاب في الأسكَل السُمُر

أنته المنايا وهو في أمن داره
كذاك الليالي من أعارته بهجة!
وورث هرون ابنه تاج ماجد
وقد كان « جيش » قبله في محله
فقام بأمر الملك هرون مدة
وما زال حتى زال والدهر كاشح
يذكرهم لما مضوا فقتابوا
فن بيك شيئاً ضاع من بعد أهله
ليبيك بني طولون إذ بان عصرهم
وورد كتاب المكتفي بولاية الحسين بن أحمد الماذراني على الخراج وجهل إليه
النظر في أمر بني طولون وضياعهم .

ثورة ابن الخليج :

ولما خرج محمد بن سليمان أخرج معه جماعة كثيرة من بقاياهم ، ومنهم محمد
ابن علي الخليج وجماعة ، فثاروا وعادوا إلى مصر وأثاروا فتنة بها ، فأرسل المكتفي
إليهم رجلاً يقال له أبو الأغر سنة ٢٩٣ فهزمه جيش ابن الخليج .

فقال إسماعيل بن أبي هاشم (١) :

أميرنا يابن الهليل الفرر
صدورنا . وقيت من كل حذر
شفيت من عدونا أبي الأغر
إذ جاء في الشوك إلينا والشجر

في جَحْفَلِ كُوجِ بِحَرِّ قَدَزِ خَرِّ يتيمه أهل البوادي والحضر
صبرت إذ لا قيته وما صبر كمرًا في أسرع من لمح البصر
يقطر منه بوله قطر المطر أحدث فوق سرجه وما شمعر
شفيتنا من تركهم مع الخزر ثم عفا أميرنا لما قدر
وهو رجز سهل بعيد عن التكلف مع قوة عبارته . وتماسك أجزاءه
ووضوح صورته .

وقال أحمد بن محمد الحبشي^(١) في أبي الأغر وابن الخليج .

غضبتَ لمصرَ وما نالها وشردتَ بالحوافِ من غالها
تلافيتها بمد إدارها وأقبلتَ تطلبُ إقبالها
وكادت تووّه شوقاً إليك وتظهرُ بالشوقِ بلبالها
وما شوقها كان من طبعها ولكن ربك أوحى لها
لقد فرّج الله كربَ النفوسِ وبلغنا فيك آمالها
ولما رأيناك في مصرنا منحننا الإمارة إجلالها
وما زلتَ تطلبها همّةً وتركب بالسيف أهوالها
وتملمُ نفسك أن الأمور رأوا عليها وإما لها
تمنّوا لقاك فلما رأوك رأوا للمنية إطلا لها
وصرّوا يطعمون في كل شيء رأوه المنايا وإزالها
وكان أبوك خليج العُفّة وبحر الثغور التي عالها
به كانت الروم في أمنها تفزعُ للذنبِ أطفالها

(١) الكندي ص ٢٦١ .

وقد خلت هذه القصيدة من المقدمات التقليدية ، وابتدأت بالحديث في الموضوع ولعل هذا الموضوع ذاته هو الذي نفر من تلك المقدمات . ثم بلغ ابن الخليج مسير أبي شجاع فاتك المتضدى إليه ، ومسير دميانة في المراكب ، ونزل أبو شجاع ومعه بدر الحماني بالنويرة ، وعسكر ابن الخليج بباب المدينة ، وسار في ثلاثة آلاف من أصحابه ليلا ليبيت بهم فاتكا فضلوا الطريق ، وأسفر الصبح قبل أن يبلغوا غايتهم ، والتقى الجمعان فهزم أصحاب ابن الخليج وذلك يوم الخميس ٣ رجب سنة ٢٩٣ واستتر ابن الخليج في منزل رجل يقال له (تريك) .

قال سعيد القاص لبدر الحماني (١) :

حالت معارفهم إلى إنكارٍ	وغدا الخميس لهم بيومٍ بوارٍ
وتقاطموا وتداروا وتنافروا	وتلاعنوا فيها كأهل النار (٢)
وأتوك بين مُعذِرٍ في عذره	خجلٍ وبين مصرح الإقرار
وترعزت تلك الرماح فصورت	ركن القطم في حفير هارٍ
طلعت نجومٌ ، في الرماح بروجها	فسقطن إذ طلعت نجوم قدار
لما أنجلي ذلك الغبار رأيتهم	صرعى وقد لبسوا بريم غبارٍ
فاسعد بنصر الله والفتح الذي	عظمت به النعمى على الأبرار

ودخل دميانة في مراكبه إلى الفسطاط ، وأقبل النوشري والحسين بن أحمد الماذراني ومن كان معهم إلى الفسطاط فدخلوها في ٥ رجب سنة ٢٩٣ ، ودلهم « تريك » على ابن الخليج فأخذ وقيد ، بعد أن أقام منتزياً ٧ أشهر و ٢٠ يوماً . ودخل فاتك الفسطاط في عسكره يوم الخميس ١٠ رجب سنة ٢٩٣ ، وأمر

(١) شرحه ص ٢٦١

(٢) إشارة إلى سورة الأعراف « كلما دخلت أمة لعنت أختها » أو « من » « إن ذلك حق ، تخاصم أهل النار » . وليس في الشعر ضعف .

دميانه بالخروج ، وأخرج معه ابن الخليلج في ٦ شعبان سنة ٢٩٣ . ثم طيف بابن الخليلج
وأصحابه ببغداد ، واجتمع الناس لهم هناك ، وكان يوماً مذكوراً .
ثم أمر الحسين بهدم الميدان فابتدىء في هدمه في شهر رمضان سنة ٢٩٣
وبيعت أنقاضه ودر كانه لم يكن .
وحمل الوفاء بعض الشعراء على البكاء ، وظهر في الشعر العربي لأول مرة
قصائد متعددة في آثار دولة زائلة ، وهذا شعر جديد في معانيه ، محزن في نغماته ،
متنوع في أناته وزفراته .

قال محمد بن طشويه :^(١)

من لم يرَ الهدم للميدان لم يرَهُ تبارك الله ما أعلاه وأقدرَهُ^(٢)
لو أن عين الذي أنشاه تبصره والحادثات تماديه ، لأكبَرَهُ
كانت عيون الوزى تفتى لهيبته إذا أضاف إليه الملك عسكره
ابن الملوك التي كانت تحل به وأين من كان بالإتقان دَبَرَهُ
وأين من كان يحميه ويحرسه من كل ليث يهابُ الليثُ منظره
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم وخطرب البلى فيه فدَعَثَرَهُ
وأخلق الدهر منه حسن جده مثل الكتاب محالصرانِ أسطره
دَكَّتْ مناظره واجتث جوسقه كأننا الحسفُ فآجَاهُ فدَمَرَهُ
أوتهبَ إعصارُ نارٍ في جوانبه فماد معروفه للعينِ منكره
كم كان يؤوى إليه في مقاصره أحوى أذن غصنِض الطرفِ أحوَرَهُ
كم كان فيه لهم من مشرب غدقٍ فعب طرف الردى فيه فكَدَرَهُ

(١) الكنى ص ٢٦٣

(٢) صوابه « ما أعلى وأقدره » ليسعيم الوزن

أين ابن طولون بانيه وساكنه أماته الملكُ الأعلى فأقبره
ما أوضح الأمر لو سحت لنا فكر طوبى لمن خصه رُشد فذكره!

وقال أحمد بن إسحاق الحكر^(١) :

وإذا ما أردت أعجوبة الدهر — تراها فانظر إلى الميدان
تنظر البثَّ والهموم وأنوا عا توات به من الأشجان
يعلم العالمُ المبصر أن الدهر — فيما تراه ذو ألوان
أين ما فيه من نعيم ومن عيد ش رخي ونضرة وجنان
أين ذاك المسك الذي ذيفَ بالعمه بهر بحتاً وعلَّ بالزعفران
أين ذاك الخز المضاعف وال وشى وما استجلبوا من الكتان
أين تلك الثقيان تشدو على ال فُرش بما استحسنوا من الأخان
دور الدهر آل طولون في هـ — وة قفر مسكوتها غير دان
وأعاض الميدان من بعد أهليه — ذئاباً تموى بتلك المغاني

وقال سميد القاص^(٢) :

وكان الميدان ثكلى أصيبتْ بحبيبٍ صباح ليلة عرس
تنفشى الرياح منه محلا كان للصون في ستور الدمقس
ولفرش الإضريح والبُسطِ الدي باج في نعمة وفي لين مسّ
ووجوه من الوجوه حسان وخدود مثل اللآلي مُلس
كل كحلاء كالغزال ونجلا رداح من بين حور ولُمس

(١) روى هذا الشعر في المخطوط ج ١ ص ٣٢٥ منسوباً إلى أحمد بن إسحاق الحكر .
وهو شاعر نحوي مصري ترجم له ياقوت باختصار في معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٢٦ ومات سنة ٣٠١
(٢) الكندي ص ٢٦٦

آل طولون كنتم زينة الأَرْضِ فَأُخِجِي الْجَدِيدَ أَهْدَامَ كُبْسِ
وَكأنه يفتنى آثار البحترى فى إيوان كسرى بجرأ وقافية وعبارات . ولا شك
أن سينية البحترى هى التى أوحى إليه بهذه الأبيات .

وقال ابن أبى هاشم^(١) :

يا منزلا لبني طولون قد دثرا سقاك سوب الغواذى القطر والمطرا
يا منزلا صرت أجفوه وأهجره وكان يعدل عندى السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحببنا أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا
ولكن المنزل لم يجبه ، ولم يبق إلا بعض آثارهم تشهد بما كان لهم من عز وسلطان .
حرب مع الغرب :

وكانت المغرب نائرة على الخلافة ، وأراد المقتدر بالله أن يخضعها ، وجعل ذلك
إلى والى مصر ، أبى منصور تسكين ، فأرسل من قبله أحد عماله فسار إلى برقة
ومنها إلى «سرت» ولكن رجلا من البربر من كتامه اسمه «حباسة» قاد المغاربة
إلى اسكندرية فدخلها فى سنة ٣٠٢ (السبت ٨ رمضان) ، فقدم القاسم بن سببا
إلى مصر مددا لتسكين ، ثم قدم أبو على الحسين بن أحمد الماذرائى ، وأبو بكر محمد
ابن على بن أحمد الماذرائى إلى مصر على تديرها ، وقدم معهما أحمد بن كيبلغ .
وسار حباسة إلى مشتول ، والتقى بالمصريين فى يوم خميس وسبت من
جمادى الآخرة سنة ٣٠٢ .

قال نافع بن محمد بن عمرو^(٢) :

الأشقَّ جيب الصبر إن كنت موجعا ولا يُلف لاح فيك للعذل مطمعا

(١) خطط القرينى ج ١ ص ٢٣٥

(٢) السكندى ص ٢٧١